إسلام التنوير

أفنى حياته دفاعاً عن جوهر الدين

ضياء بوسالمي

أمام تصاعد الحركات الإسلامية المتطرّفة التي تبشّر بـ «إسلام غاضب»، يتساقط المفكّرون الأحرار الواحد تلو الآخر، كأنّ القدر قد سلّط لعناته على كل الأصوات المستنيرة ليفسح المجال واسعاً أمام «مجانين الاله».

إذا أردنا أن نقوم بعملية إحصاء لأكثر المفكّرين دفاعاً عن الإسلام والمسلمين في المنابر الإعلامية، سنجد مالك شبل على رأس القائمة. لم يتوانَ عن الدفاع عن رؤيته ونظرته إلى إسلام مستنير يرتكز إلى البعد المقاصديّ والتأويل المفتوح على كل التيارات الفكرية، إذ يرفض كلّ دعوة للعنف أو نبذ الآخر المختلف. يرتكز فكر مؤلّف «الفكر العربي الإسلامي» أساساً إلى استغلال الآفاق الجديدة التي تتيحها العلوم الإنسانيّة ليطبّقها عبر استثمارها وتوظيفها في فهم النص القرآني والموروث الإسلامي بصفة عامة. كما سعى عبر كتاباته إلى التأكيد على تاريخية النص، مما يؤدّي إلى القول بأنّ تعدّد القراءات واختلاف الرّؤى من المصادر التي تثري الفكر الإسلامي فـ «التنوّع في الوحدة، والوحدة في التنوّع» كما كتب الفيلسوف الفرنسي إدغار موران. إنّ فكره ينبني على قيم كونيّة جامعة للبشر، تخرج من الدوائر الضيّقة وترفض الإنغلاق، ساعيةً إلى بلوغ آفاق أرحب وأوسع. أي أنّه كان يطمح إلى إخراج الإسلام من القراءات المتطرّفة التي تحبسه في دوائر التعصّب نحو أفق أوسع حيث يكون إعمال العقل والتفكير

> قدّم قراءة ثوريّة تحرّر النص

سلاحاً لفهم النص ومقاصده. إنّ مبدع عبارة «إسلام الأنوار» توخّى خلال مسيرته الطويلة، منهجاً واضحاً وناجعاً في البحث، فهو يعتمد على تقنية «الفلاش باك» أي العودة إلى الذاكرة الجماعيّة والنّبش والتنقيب في أسباب الإزدهار والرقي الفكري. ينهل من تاريخ مختلف الأمم والحضارات ليحاول في مرحلة ثانية إعادة إنتاجها ضمن سياقات تتماشى ومتطلّبات الموروث والثقافة الإسلاميين. إنّها قراءة ثوريّة تحرّر النص، وتحطّم كلّ القيود التي فرضها الفقهاء منذ عصور غابرة. لقد إقتحم شبل بمؤلّفيه «الجسد في الإسلام» (1984) و«موسوعة الحبّ في الإسلام» (1995) مجالاً لطالما تجنّبه الكتّاب والأكاديميون المعاصرون، لما يتطلّبه من جرأة في التعامل مع الأحداث التاريخية المجهولة التي تؤدّي إلى تسليط الضوء على تابوهات كالجنس ومكانة الجسد في الإسلام وتاريخ الحضارة العربيّة.

إنّ إسلام الأنوار كما نظّر له الراحل، هو إسلام في متناول الجميع بعيداً عن تعقيدات الفقهاء وسلطة المؤسسات الدينية. شبل اختار أن يترجم القرآن إلى الفرنسيّة (فكرة سبقه إليها كثيرون)، لكنّ الترجمة كانت قائمة أساساً على المعاني من دون الاهتمام والتركيز على المفردات والتراكيب. هكذا أفنى حياته محاولاً الدفاع عن جوهر الدين. هذا الأنثروبولوجي الفذّ انتصر لإسلام المعاني والتفكير، على حساب إسلام التعبّد والمظاهر.

المكالمة الأخيرة في باريس

باريس ــ **فائزة مصطفى**

اتصلت بالمفكر الكبير مالك شبل قبل أسابيع، واستأذنته لإجراء حوار صحافي معه، لكنه اعتذر بلباقة ولطف شديدين. أخبرني أنّه مريض يعالج في المستشفى. بدا صوته خافتاً وعميقاً، كما لمست في حديثه المقتضب نبرة ضعف وتحدٍّ، فأحسست فعلاً أنه يعاني بصمت. تمنيت له الشفاء وأجلنا اللقاء إلى موعد آخر. لم أكن أدرك حينها أنّ ذلك لن يحدث أبداً.

عرفت من صديقه المقرب رئيس تحرير «نيو أفريكان» هشام بن يعيش أنّه خاض معركة بلا هوادة ضد السرطان منذ كانون الثاني (يناير) الماضي. اشتدت آلامه خلال الشهرين الأخيرين، وتداعت حالته الجسدية والنفسية نتيجة العلاج الكيميائي. شاء القدر أن يرحل صاحب «موسوعة الحب في الإسلام» عشية الذكرى الأولى لاعتداءات باريس الدامية، هو الذي اشتهر في المشهد الثقافي الفرنسي بدفاعه المستميت عن إسلام الأنوار ومحاربته للفكر المتطرف المتفشي في الضواحي الفرنسية. حرص على تأليف بعض كتبه بأسلوب بسيط وبيعها بأسعار رمزية لتكون في متناول الجميع، حتى يمكننا أن نجدها في المكتبات الفرنسية.

لقد كان هذا المفكر متحدثاً حكيماً في وسائل الإعلام الفرنسية التي لطالما وقعت في فخ الخلط بين الإسلام والاسلاموية. كان يحاور الآخرين بالحجة وبالإصغاء والتواصل، وهذا ما جعله مثقفاً استثنائياً لم ينجرف نحو اللوبيات أو الدوائر الثقافية المغلقة. ظل حراً ومحايداً يتمتع بروح المسؤولية التي اكتسبها منذ طفولته العسيرة في الجزائر. يقول هشام بن يعيش لـ «الأخبار»: «نشأ مالك يتيماً بعد وفاة والده إبان الثورة الجزائرية، التحق بالمدرسة الداخلية في مسقط رأسه سكيكدة ثم قسنطينة، وهذا ما منحه قوة الشخصية والشعور بالاعتماد على النفس. كان يتمتع بإرادة وذكاء رهيبين لحلّ مشاكله، ومن هنا تكوّنت مقدرته على إثارة الإشكاليات الفلسفية ومجابهة أعقد القضايا الفكرية».

على خطى مواطنه محمد أركون، دأب على إصلاح الفكر الإسلامي في مؤلفاته التي تجاوزت الثلاثين. اعتمدت نظرياته على التجربة العلمانيّة، واجتهد لتخليص الثقافة الإسلامية من الأفكار الرجعية

وخطابات الطائفية والانغلاق، عبر مطالبته بالاهتمام بمركزية الإنسان المسلم داخل مجتمعه. نادى بتحرير الفكر واحترام الآخر، بل كان أكثر جرأة عندما دعا إلى إعادة قراءة القرآن وفق السيرورة التاريخية. طرح قضية فصل الشأن السياسي عن الديني، مما فتح عليه جبهات تعادي فكره وتحاربه.

كان مهووساً بالعالم العربي والحضارة الإسلامية، فأفنى حياته في البحث عن مفاتيح لفهم التراث وتأويله، وتقديم حلول لظاهرة الإسلاموفوبيا وتنامي ظاهرة الأصولية الدينية في فرنسا. أخذ على عاتقه الترويج للخطاب التنويري للإسلام، وقد وظف لذلك عملاً بيداغوجياً مؤسساً، بل كسر التابوهات من خلال إثارته موضوع الجنس وجسد المرأة وإبعاد الدين عن السياسة. يقول الباحث محمد شوقي الزين، مؤلف كتاب «الثقافة في أزمنة العجاف» لـ «الأخبار»: «لقد كان الراحل من المثابرين على تقديم رؤية علمية للإسلام، تلتفت إلى المسكوت عنه واللامفكر فيه من جُملة الظواهر المتعلقة بالحب والجنس والأخلاق والسياسة. ربما يشكّل كتابه «بيان من أجل إسلام التنوير» (2004) منعطفاً حاسماً في ردكلة الكتابة الأنثروبولوجية نحو قراءة الأعماق مثل المخيال، والحب، والجنس، والذات، وأسئلة اللاشعور، والقلق، والحظر والخطيئة، وهي الأساليب المهيمنة في القول الديني التي تقتضي قراءة مركّبة من حيث المفاهيم والتأويلات: أنثروبولوجية، سيكولوجية، فينوميولوجية... قراءات معمَّقة في إنتاجه الفكري كفيلة بتبيان نظام الرؤية وطبيعة المنهج في مقاربة التراث العربي الإسلامي».

أغلب قراء هذا المفكر من الجنس اللطيف، إذ يحظى بشريحة واسعة من القارئات لأعماله بسبب جرأته في إثارة قضايا تخصهن وتسليط الضوء على مجتمعاتهن المنغلقة. كما لم يسعفه القدر متسعاً من الوقت لإصدار خمسة مشاريع كان يجري تنقيحاته الأخيرة عليها، وكان يُفترض أن تصدر عن دار «بلون» و«ألبان ميشال» العام المقبل، من بينها ببليوغرافيا خاصة به.

يرى المقربون منه أنه كان مستاء من تغييبه في بلاده الأصلية التي أصدر عنها كتابه «قاموس العشق في الجزائر» (2012)، فلم تدعه الجهات الرسمية للمشاركة في الفعاليات الثقافية يوماً، ما عدا دعوته من قبل المركز الثقافي الفرنسي في الجزائر لتقديم محاضرة، واستضافته في ندوة أقامتها جريدة «جزائر نيوز» قبل سنوات. ومثلما ظلّ يصر على قضاء شهر كل سنة في مدينته حيث عشق المراكب الشراعية والبحر، اختارها أن تكون مرقده الأبدي.

«المسلم الجديد» لن يرى النور قريباً

وليد حسّاني

«المسلم الجديد» الذي كان يحلم به مالك شبل لن يرى النور قريباً. رحل صاحب «الكاماسوترا العربي» من دون أن يتخلّص المسلم الحالي من وزر الماضي، من قراءاته الميكانيكية للنص الديني، بل إن الأمر ازداد سوءاً. في عامه الأخير، شهد شبل صعوداً لافتاً للأصولية الإسلامية، بلغت شراراتها منفاه الباريسي. كما لو أن محاولاته لتحرير المسلم من فخّ الراديكالية لم تبلغ مقاصدها، فهو غير مقروء – كما يليق به – في العالم العربي. لم يقدّم شبل يوماً نفسه كرجل دين، ولا كمختص في الإسلام، لم يركب الموجة الإعلامية، التي سبقه إليها مفكّرون عرب، في فرنسا. حافظ على مسافة أمان في علاقته بالميديا. في باريس، كان يكتب كثيراً ويتكلم قليلاً. جمع في دراساته بين علم النّفس والأنثروبولوجيا لنقد الإسلام وتقديم تأويلات معاصرة للقرآن. ركّز عمله الأكاديمي على المرأة، خصوصاً في كتابين مهمين هما: «الكاماسوترا العربي» (2006) و«العبودية في أرض الإسلام» (2007). وحين راكم «فهماً» حديثاً للدين، ترجم القرآن (2009) ليضع نفسه في مواجهة صاخبة مع بعض تمثيليات الإسلام في فرنسا. حاول خصومه التقليل من قيمة عمله الأهم، بحجة أن من يكتب عن الخمر («أنطولوجيا الخمر والسّكر»، 2004)، والجنس في الإسلام، لا يحقّ له ترجمة القرآن ولا التناقش فيه. لكن ترجمة شبل للقرآن كانت حاسمة في مسيرته. في عام واحد، نفدت ثلاث طبعات من الترجمة نفسها، وتجاوزت بذلك أرقام مبيعات الترجمة السابقة الأشهر لأندري شوراكي (1990).

كان الراحل يفهم أن تعديل صورة الإسلام، في أوروبا إجمالاً، يبدأ من تعديل قراءاتنا له. هكذا خاض معركته ضد «أصولية التأويل»، وأنصار المذهب الظّاهري، الذين يحكمون على الأفعال والنّوايا من ظواهر النصوص، من دون إعمال العقل.

قد يختصر بعضهم اشتغالات شبل الفكرية برغبة منه في العودة إلى «إسلام الأنوار». هذا المصطلح

> صُدم بتحوّلات ربيع العرب، وسطوة المنطق الديني

بالذات كان «يُغضب» الراحل، بحكم أنّ المسلمين بعيدون تماماً عن تلك الحقبة، ومهما حاولوا، فلن يعودوا إليها. الإسلام اليوم يعيش زمن الانقسامات الكبرى، وكل مسلم يعيش ويحيا على إرث الماضي. لذلك، كان شبل يدعو إلى «قطيعة» مع ما سبق، من أجل التفكير في إعادة البناء، وتأسيس إسلام جديد، يتماشى مع اللحظة التاريخية التي يعيش فيها. من يكتب عن الإسلام من الغرب، يُنظر إليه بتوجّس... تلك هي حالة محمد أركون، عبد الوهاب المؤدب، ثم مالك شبل. مجرد أن يعيش هؤلاء في مجتمعات أوروبية، تصير كتاباتهم محلّ تشكيك، ويُنظر إليها على أنها ليست سوى «محاباة» للغرب. هذا ما يبرّر – إلى حدّ ما – بقاء قراءات أعمال شبل «نخبوية»، رغم أنه ترك أكثر من ثلاثين عملاً، فلم يترجم منها ـ حتى الساعة ـ سوى كتابين إلى العربية. كما أنّ أطروحاته لم تجد صدى في الأوساط الشعبية، فقد كان صارماً جداً في نقده للإسلام السياسي الحديث، وللحركات الإسلامية، التي ـ برأيه ـ وُلدت من سوء فهم للنصوص الدينية، وتوسّع نشاطها في الداخل العربي، مما انعكس بالضرورة على صورة المسلم في الغرب، الذي صار «غير مرغوب فيه»، ليس فقط من اليمينيين، بل أيضاً من الأناس العاديين. لهذا، حاول شبل طويلاً قلب الصورة. اهتم بالكتابة عن المرأة المسلمة، بحثاً عن إنسانيتها، وتحريراً لها من العبودية الخاضعة لها في المجتمعات الإسلامية، وجاء الربيع العربي كلحظة «انبعاث» تمناها شبل، لكنه مثل غيره من المفكّرين، صُدم بتحوّلات ربيع العرب، وسطوة المنطق الديني على الآراء الأخرى. كانت خيبة كبيرة في نفسه، تمنّى أن تزول سريعاً، لكنها ما زالت مستمرة إلى الآن.

الإسلام بالنسة لشبل، هو إسلام متعدّد، وليس واحداً، يبدأ من لحظة «الوحي» لكنه يتفرّع. هو لم يكن يجد مانعاً في الكتابة عن زوجات الرّسول، وعن الإيروتيكية، عن الخمر، وعن السّيرة النبوية. كان يحمل في قلبه حلم ولادة «المسلم الجديد»، المتصالح مع نفسه، المتحرّر من سلطة المقدّس، لكنه مات وقد عاد المسلم العاقل إلى جحره، هرباً من طوفان الأصولية!